

مصر تلتحق بموجة محاسبة التماثيل على خطايا أصحابها

ترميم تمثال ديلسبس بعد الإهمال يثير الجدل

أضحى غضب الجماهير بلا بوصلة، مدفوعاً بممرارات متراكمة ترفض التسامح مع الماضي، وتحمل العداء لكل رمز يربطها بالثورة عليه، ما دفع جموعاً من المتظاهرين في كثير من بلدان العالم إلى محاسبة التماثيل المعبرة عن رموز يرونها غير أخلاقية، وتصرفاتها مرفوضة وهذا ما وسع الجدل في مصر حول ترميم تمثال فرديناند ديلسبس.

مصطفى عبيد

القاهرة - يبدو أن ظاهرة محاسبة التماثيل وصلت مصر مؤخرًا، حيث أثار إعلان الحكومة المصرية عن إعادة تمثال فرديناند ديلسبس بعد الانتهاز من ترميمه إلى موضعه الأصلي عند مدخل قناة السويس بمدينة بورسعيد، مدخل قناة القاهرة، معركة ساخنة تمديدت عبر مواقع التواصل الاجتماعي ووصلت أصداؤها إلى مجلس النواب، وفضائيات وصحف عدة، وتشعبت القضية، وأخذت مسارات أخلاقية تداخلت مع أخرى سياسية في توقيتات بالغة الحساسية، وملئية بالتعقيدات الداخلية والخارجية.

شريف عارف

يجب مراعاة المعايير الوطنية عند اتخاذ قرار ترميم تمثال ديلسبس

حسن حماد
التمائيل قيمة حضارية
وجزء لا يتجزأ من ذاكرة الشعوب

يحملان إهانة بالغة للمصريين، وتاريخهم في النضال ضد الاستعمار. دخل عبدالحكيم عبدالناصر، نجل الرئيس المصري الراحل جمال عبدالناصر، على خط المساجلة عبر إحدى الفضائيات، وكرر مطالبته للدولة بوقف ترميم التماثيل، وصرف النظر تمامًا عن فكرة إعادة نصبه في مدينة بورسعيد، لأنه رمز واضح للاستعمار واستغلال الشعوب ونهب خيراتها.

اكتسبت شخصية ديلسبس رمزيتها الاستعمارية من نجاحه في إقناع سيد باشا والي مصر سنة 1854 بفكرة ربط البحرين الأحمر بالمتوسط من خلال قناة مائية يتم شقها، وحصوله على امتياز بذلك، ليتم تشغيل الآلاف من المصريين بالسخرة في المشروع، مقابل الحصول على نسبة ضئيلة لم تتجاوز خمسة عشر في المئة من الأرباح، فضلًا عن احتياله على الخديوي إسماعيل والاستيلاء على حصة مصر في القناة سدادًا لديون خارجية، إلى جانب السماح للجيش البريطاني بدخول مصر عبر قناة السويس سنة 1882.

وأكد سياسيون أنه لا يجب الوقوف ضد المشاعر الإنسانية للناس، والنظر بعين الاحترام لرؤاهم وتصوراتهم.

قال نائب رئيس حزب الوفد الليبرالي حسين منصور لـ "العرب"، إن هناك في العالم كله رموزًا للتوحش والكراهية لا يمكن استيعاب الإشارات

والانطلقت مؤخرا موجة غضب للإطاحة بالتماثيل المعبرة عن رموز يرونها غير أخلاقية، ففي إنكلترا أزاح محتجون نصبًا تذكاريًا لإدوارد كولستون تاجر العبيد الشهير في القرن السابع عشر، وفي ولاية فرجينيا بأميركا أسقط المتظاهرون تمثالًا للضابط الكونغولي البريت بايك باعتباره أحد رموز العنصرية.

وأسقط متظاهرون السبت تمثال كريستوفر كولومبوس في مدينة بالتيمور الواقعة على الساحل الشرقي للولايات المتحدة، في أحدث هجوم يستهدف معالم وتماثيل لشخصيات تاريخية تتعلق بالعبودية أو الاستعمار.

وأطاح الغاضبون في بروكسل بتمثال الملك ليوولد الثاني بسبب تاريخه العنصري تجاه الكونغو، حتى الحورية الصغيرة في كوبنهاغن، أشهر معالم الدنمارك تعرضت إلى "عمل تخريبي" تمثل بكتابة شعار معاد للعنصرية على قاعدته.

ولم تسلم إثيوبيا من موجة شعبية أسقط خلالها المحتجون تمثال هياسيلاسي آخر الإباطرة.

رود فعل شعبية

اعتبر سياسيون وأعضاء برلمان مصر وقيادات شعبية ترميم التمثال وإعادة نصبه يمثل إهدارًا للماء وأرواح المصريين الذين سقطوا شهداء في عهد الاحتلال البريطاني، وخلال حفر قناة السويس. وقدم مصطفى بكرى عضو البرلمان بيانًا عاجلاً حول التمثال ذكر فيه أن ترميمه وإعادة



تعرض لكسر قاعدته سنة 1956



تاريخ تأميم قناة السويس

نظر أو رؤى، الأولى هي الرفض التام باعتبار أن إسقاط التمثال تم من خلال رجالات المقاومة الشعبية، وهي وجهة نظر تستحق كل التقدير والاحترام، فلا يجوز بأي حال من الأحوال أن نهيل التراب على صفحة خالدة من تاريخ الوطن.

أما وجهة النظر الثانية، فهي تأييد عودة التمثال إلى قاعدته على اعتبار أنه تصرف حضاري ويتصالح مع التاريخ، وأن افتتاح مصر على العالم يقتضي المضي قدماً في هذا المضمار. الرؤية الثالثة، هي استكمال ترميم التمثال كإجراء حضاري، لكن دون إعادته إلى قاعدته، وإقامته في إطار مشروع "بانورامي" كامل يروي تاريخ قناة السويس على أن تتم إقامة المشروع بجوار متحف بورسعيد.

أوضح الباحث في التاريخ الحديث والمعاصر شريف عارف، والذي ينتمي إلى مدينة بورسعيد لـ "العرب"، أن القضية موضوعاً للنقاش منذ فترة طويلة وأن الجدل حول تمثال ديلسبس مطروح منذ الثمانينات، لكنه يظهر ويخفو.

وأضاف أن هناك مجموعة من المعايير الوطنية التي يجب مراعاتها عند اتخاذ القرار النهائي بشأنه، دون المساس بالثوابت الرئيسية، وعدم تجاهل الأفكار المطروحة مع أو ضد، فالمهم أن يكون هناك رأي أو موقف يتأسس على القيمة الأخلاقية والحضارية التي يمثلها هذا الأثر أو ذلك.

ويرتبط ترميم وعودة تمثال ديلسبس في مصر بثلاث وجهات

إليها تحت لافتة الفن أو المعمار أو التسامح الحضاري. وأوضح أن الغضب الشعبي تجاه تمثال ديلسبس مفهوم، ليس لأنه كان شخصية انتهازية ساهم في احتلال مصر سنة 1882 عندما أقنع أحمد عرابي بعدم إمكانية دخول الإنجليز عبر قناة السويس باعتبارها ممرًا دوليًا، ثم سمح للإنجليز بالدخول عبر ممر القناة البحري.

وتم تحطيم التمثال من قبل المواطنين عام 1956 في ظل ثورة غضب شعبي تجاه كافة الرموز الاستعمارية، وحتى لو كان ذلك الفعل حدث بدعم رسمي من الحكومة، وحتى لو كنا نختلف معها في ذلك الوقت، فإننا يجب أن ننصاع للمشاعر الشعبية ونقبلها.

غضب انتقائي

إذا كان البعض يلاحظ أن موجة الغضب المشتعلة تجاه تمثال ديلسبس لا تنسحب على تماثيل أخرى للكثير من حكام مصر أو رموزها التاريخية المعروفة عبر التاريخ بالاستبداد والطغيان، مثل تماثيل الملك رمسيس الثاني الذي يعتقد أنه فرعون موسى، تحظى بكل اهتمام وتقدير، فإن مرد ذلك بان الشعوب العربية بشكل عام يمكن أن تغفر لطغاة ومستبدن أمثال الطغيان، طالما ينتمون إلى أهل البلد أو يحملون الدين الخاص بالأغلبية.

قال حسين منصور لـ "العرب"، إن التاريخ الشعبي يختلف عن الأكاديمي والمتخصص، وفي الغالب فإن العامة لا يعرفون التاريخ من الكتب المتخصصة، إنما مما عايشوه وعايشه أبائهم وأجدادهم ونقلوه لهم.

صحيح أن حكاما كثرًا لهم تماثيل ومبانٍ تذكارية اقترنت أسماؤهم بالسخرة في بناء صروح ومشروعات كبرى، مثلما هو الحال مع ديلسبس، لكن التاريخ الشعبي انتقائي، ربما يغفر للتلاليم القريب، لكنه لا يغفر أبداً لمن يعتبره عدواً.

هكذا لم يطالب أحد من القوى الشعبية بتحطيم تمثال إبراهيم باشا، نجل محمد علي حاكم مصر سابقاً، على الرغم مما نكره المؤرخون عن ظلمه للمصريين وتعمسه في جمع الضرائب من البسطاء إلى درجة شبيه على النار وهم أحياء.

أصنام فكرية

يرفض البعض أي مساس بالقيم التاريخية تحت لافتة غضب الجماهير، ويمنونهم ربما قدراً من القداسة السياسية التي تحول دون الاقتراب منهم، وتمضي هذه النمطية على وثيرة إلى حد كبير ثابتة، ولا يستطيع أحد التشكيك فيها، أو يفكر في تحطيمها، مهما اختلفت الأجواء والحكومات.

أكد استاذ الفلسفة وعلم الجمال بكلية الآداب جامعة الزقازيق شمال القاهرة حسن حماد لـ "العرب"، أن التماثيل التاريخية والتذكارية تمثل قيمة حضارية ومعمارية عظيمة، ورأي أنها جزء لا يتجزأ من الذاكرة، بصر في النظر عن الطبيعة الأيديولوجية لصاحب التمثال سواء كان وطنياً أم طاغية أم مستعمر أم خائن.

وتساءل حماد، هل نحطم تمثال محمد علي لأنه نفذ مذبحه القلعة وراح ضحيتها المئات من المماليك، أو هل نتخلص من المعبد اليهودي لأننا نخوض صراعاً ضد إسرائيل؟

وأوضح ضرورة احترام كل قيمة تاريخية لا تقدر، وأنها أمام عمل فني يجب الحفاظ عليه، "إنني أتصور أن الحملة ضد تمثال ديلسبس

وتوابعها تقف خلفها جماعات سلفية، لأن هؤلاء يتعاملون مع التماثيل بوصفها أصناماً".

في سياق النقاش حول هدم تماثيل الميادين التاريخية، يرى خبراء آثار أن العداء لتماثيل الماضي في غير محله، مهما كانت أخلاق أو سياسات أصحابها، فلا أحد يستطيع محو تاريخه، وعلى العكس الأمر التي لديها تماثيل عديدة تعود إلى عصور مختلفة هذا يعني أنها صاحبة حضارات عريقة من حقها أن تفتخر بها، حتى ولو كان بعضها ارتبط في أذهان الناس بقدر من السلبية والظلم.

الأهم التي لديها تماثيل عديدة تعود إلى عصور مختلفة يعني أنها صاحبة حضارات عريقة من حقها أن تفتخر بها

وأشار مفتش آثار إسلامية بالقاهرة محمد سامي، في تصريحات خاصة لـ "العرب" أن مجرد اعتبار تمثال ما أثراً يعني الحرص على سلامته والعناية به، لأن في ذلك عناية بالتاريخ والحضارة. وأضاف "لا يعني إن كان التمثال لقاتل أو لص أو خائن، لكن من حق الأجيال القادمة أن ترى وتعرف ما تركته فترة تاريخية ما".

ويستند الكثير من خبراء الآثار على القانون المصري لحماية الآثار الذي ينص على أنه "يعتبر أثراً كل عقار أو منقول أنتجته الحضارات المختلفة أو أحدثته الفنون والعلوم والآداب والأديان من عصر ما قبل التاريخ وخلال العصور التاريخية المتعاقبة حتى ما قبل مئة عام باعتبارها مظهراً من مظاهر الحضارات المختلفة التي قامت على أرض مصر، أو كانت لها صلة تاريخية بها، كذلك رفات السلال البشرية والكائنات المعاصرة لها".

طريق ثالث

هناك رأي ثالث يحاول الموازنة بين الفريقين، يرفض تحطيم التماثيل الخاصة بالفترة الاستعمارية أو غيرها من فترات التاريخ، لكنه يرى ضرورة عدم جرح المشاعر الشعبية بوضعها في ميادين عامة، وإنما قصر عرضها على المتاحف.